الإمكانات اللغوية للحديث النبوي الشريف

مفتتح: فكرة البحث ومجاله والهدف منه:

أ.د. محمد أحمد حماد *

تتركز فكرة هذا البحث حول الكشف عن الإمكانات اللغوية للحديث النبوي الشريف، وبيان اتساع هذه الإمكانات، وتعددها، وصلاحيتها كلها، صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية وأسلوبية للتعبير عن المعاني التي كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تبليغها إلى الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وإلى عامة المسلمين من بعدهم إلى يوم الدين.

ونقصد بالإمكانات اللغوية: اتساع اللغة العربية التي ورد بها الحديث النبوي، وقابليتها للتعبير عن المعنى الواحد بعدة وسائل تركيبية-صرفية ونحوية- ومعجمية، وأسلوبية؛ كأن يتم التعبير عن هذا المعنى الواحد بالجملة الاسمية مرة، وبالجملة الفعلية مرة أخرى، أو بأسلوب التوكيد مرة، وبالإطلاق وعدم التوكيد مرة أخرى، أو بالإفراد حينا، وبالجمع حينا آخر، وبالماضي تارة وبالمضارع تارة أخرى،...وهكذا.

هذا هو المراد بالإمكانات اللغوية، أو ما يعبر عنه بالتوسع، أو الاتساع. ومن المقرر لدى العلماء أن كل لغة إنسانية صالحة للتعبير عما يريده أصحابها من أفكار ودلالات، وتعد كل لغة أفضل اللغات وأصلحها بالنسبة إليهم، وإلا ما ارتضوها لغة قومية لهم.

واللغة العربية ليست بدعا في ذلك؛ فهي صالحة للتعبير عما يريده أصحابها منها، ولذلك يحبونها، ويعتزون بها، مثلهم في ذلك مثل بقية شعوب العالم مع لغاتهم، ولكن اللافت للنظر، والمثير للانتباه حقا أن اللغة العربية تحظي بمجموعة من الخصائص والسمات اللغوية التي تنفرد بها عن بقية اللغات، تلك السمات والخصائص التي لا يختلف عليها الدارسون، ولا تنتمي إلى ما ينسب إلى المغالاة في الحب، أو التعصب، أو الآراء التي لا تستند إلى واقع لغوي ملموس.

---

* أستاذ علم اللغة و اللغات الشرقية السامية ، كلية دارالعلوم، جامعة القاهرة، مصر

تمتاز العربية في هذا المجال بالمحافظة الشديدة، وعدم الخضوع للتطور السريع المتلاحق، والثبات على استعمال كثير من الظواهر اللغوية. [1] هذا مع طاقة جبارة وقوة وحيوية في مواجهة المشكلات؛ إذ لم تواجه لغة في القديم، ولا في الحديث مثلما واجهت العربية ثم خرجت منتصرة ظافرة صحيحة معافاة، [2] وذلك بفضل حصانتها الذاتية التي هيأها الله عز وجل لها. [3]

وإذا تركنا هذا الكلام حول مزاياها العامة وجئنا إلى أهم خصائصها الداخلية فإننا نجد أن أهم خصيصة تختص بها اللغة العربية هي اتساعها في التعبير، وامتلاكها مجموعة من الإمكانات اللغوية التي لا تمتلكها لغة أخرى في القديم، ولا في الحديث:

- فهي تمتلك إمكانات صوتية خاصة؛ لأنها تستعمل جميع المخارج، أو مواضع النطق في الجهاز الصوتي الإنساني بدءا من الحنجرة، وانتهاء بالشفتين، ونتج عن ذلك اختصاصها بالمجموعة الصوتية الحلقية في أحيازها الثلاثة: الحنجرة والحلق والحنك اللين، فاختصت بالهمزة والهاء والحاء والعين والخاء والغين.
- تستعمل طرف اللسان مع الأسنان في إنتاج الأصوات (بين الأسنانية) وهي: الثاء والذال والظاء، تلك المجموعة التي لا توجد في اللغات الأخرى.
- وهي اللغة الوحيدة التي تستثمر مؤخر اللسان في ارتفاعه نحو سقف الحنك اللين أو الطبق لإنتاج مجموعة من الأصوات المفخمة أو المطبقة، وهي الصاد والضاد والطاء والظاء، مع وجود مجموعة أخرى تنطق من هذا الموضع، وهي الخاء والغين.
- إذا تركنا الجانب الصوتي، وجئنا إلى جانب الصرف وبناء الكلمات قابلنا الاتساع اللغوي في عدة ظواهر، في مقدمتها استعمال المثنى، واستعمال صيغ جموع التكسير بأوزانها الكثيرة التي تزيد على الثلاثين وزنا، ووجدنا أنماطا من المصادر، والمصدر الميمي، واسم المصدر، وقابلنا اسم الفاعل مع صيغ المبالغة

1- انظر كتابنا: دراسات في فقه العربية: ٣٨.

2- انظر: العربية الفصحى الحديثة، تأليف ستتكيفيتش، ترجمة وتعليق: د. محمد حسن عبد العزيز: ١٦.

3- انظر بحثنا عن الحصانة الذاتية للغة العربية.. مصادرها ومظاهرها. المؤتمر الدولي العاشر لجمعية لسان العرب بجامعة الدول العربية ١٧٠ نوفمبر ٢٠٠٢م.

والصفة المشبهة والفروق الدلالية الدقيقة بينها، من حيث الدلالة على التجدد في الحدث، أو المبالغة فيه، أو الثبات فيه.

كما نقابل التذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، والأنواع التفصيلية في استعمال الضمائر الشخصية وأسماء الإشارة وأسماء الموصول.

- أما الجانب النحوي فاللغة العربية تكاد تمتلك ضعف الإمكانات التركيبية لبناء الجملة في اللغات الإنسانية كلها؛ لأنها اللغة الوحيدة التي تستعمل الجملة الفعلية إلى جانب الجملة الاسمية في الأسلوب الخبري، مع وجود ظاهرة الإعراب نظاما كاملا.[1]

كما تمتلك إمكانات هائلة في تنويع الأساليب الإنشائية والخبرية، وعلينا أن نلاحظ التعبير عن الأمر، أو الطلب بصيغة الفعل الأمر، وبصيغة الفعل المضارع المقترن بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر المنصوب النائب عن فعل الأمر.

هذه خطوط عامة لتوضيح بعض مظاهر الاتساع في اللغة العربية، وبيان ما تمتلكه من إمكانات لغوية ضخمة وهبها لها الله سبحانه وتعالى؛ لأنه عز وجل يعلم أزلا أن هذه اللغة ستكون وعاء لكلامه العزيز، وقرآنه المجيد، وستكون حاملة لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ونحن نعلم أن القرآن الكريم والسنة المطهرة أصل التشريع، ودستور الإسلام ذلك الدين الخالد الصالح لكل زمان ومكان، تتسع أحكامه وشرائعه لجميع البشر؛ فكان من اللازم أن تتسع لغته كذلك للتعبير عن جميع هذه الأحكام والشرائع.

وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وحملت لغته الشريفة إمكانات لغوية هائلة وصلت إلى درجة (الإعجاز) باتفاق الجميع، وكانت أول ما يحمل خصائص هذه اللغة ويعبر عنها، وتتضح هذه الفكرة من الاستطراد التالي:

- جمعت الأصوات التي من بين الأسنان في آيات كثيرة جدا تزيد على أربعين آية، منها قوله تعالى: ﴿ **وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ (النساء: ٢١) الذال والثاء والظاء.

---

[1] - انظر حديثا مفصلا عن الإعراب، وفائدته، وانفراد العربية به حتى الآن، واختفائه من جميع اللغات القديمة التي كانت تستعمله،... انظر ذلك كله في : دراسات في فقه العربية : ٣٤ وما بعدها، وانظر كذلك: اللغة العربية عبر القرون: ٣٥، فقه اللغة المقارن : ١٥، فقه اللغات السامية: ١٧ .

- جمعت الأصوات الحلقية كلها في مكان واحد، في آيات كثيرة جدا كذلك، منها قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ (البقرة: ١٣١) = الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء.
- جمعت الأصوات المفخمة كلها في مكان واحد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ (الشعراء: ٦٣) = الصاد والضاد والطاء والظاء.
- وهناك آيات قرآنية جمعت الأصوات السابقة كلها: بين الأسنانية، والحلقية، والمفخمة في آية واحدة. يقول الله عز وجل:

﴿**قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ**﴾ (ص: ٢٤) = ذ ث ظ/ أ هـ ع ح غ خ / ص ض ط ظ.

ومن الخصائص الصرفية للغة العربية ظاهرة التثنية وجموع التكسير وظاهرة الاشتقاق والتعريف والتنكير والتذكير والتأنيث. ونجد القرآن الكريم قد حشد في لغته العربية أمثلة كثيرة جدا لهذه الظواهر:

- جمعت الآية بين المفرد وجمعه جمع تكسير. قال تعالى: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا**﴾ (ص: ٥) ﴿**لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ**﴾ (ص: ٢٤)
- جمعت الآية بين المفرد والمثنى، قال عز وجل :﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ**﴾ (آل عمران: ١٣)
- جمعت الآية بين الفعل واسم الفاعل ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾.(المعارج: ١)
- جمعت الآية بين اسم الفاعل واسم المفعول ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾ (البروج : ٣)
- جمعت الآية بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول ﴿**لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧٩)
- جمعت الآية بين النكرة والمعرفة ﴿**رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ**﴾ (آل عمران: ٤١)
- جمعت الآية بين المذكر والمؤنث ﴿**وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ (النور: ٢٦)

ومن الخصائص النحوية للعربية وجود الجملة الفعلية إلى جوار الجملة الاسمية، وقد اتسعت عربية القرآن الكريم للكشف عن ذلك في آية واحدة. قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة: ١)

هذا القرآن الكريم الذي تربى عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأه قبل أن يُقْرئه الصحابة الصحابة رضي الله عنهم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)، وقد شهد هذا القرآن الكريم للرسول عليه الصلاة والسلام أنه لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم ٣-٥).

وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أدبه ربه فأحسن تأديبه، أو كما قال. وذكر أيضا أنه أوتي القرآن ومثله معه، أو كما قال عليه السلام.

ونفهم مما سبق أن الحديث النبوي يرتبط بالقرآن الكريم ارتباطا شديدا، وأن خصائصه تلتقي مع خصائص القرآن الكريم مع إدراك الفروق الأساسية بالطبع بين النصين، ومنها أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه، وأنه متعبد بتلاوته،... وهكذا إلى آخر تلك الفروق التي يحفظها أهل العلم.

لكننا نشير هنا – مجرد إشارة – إلى أن الحديث النبوي الشريف يشتمل على جميع خصائص اللغة العربية كما اشتمل عليها القرآن الكريم، وأنه حافظ عليها كما حافظ عليها القرآن الكريم، وأضاف إليها إمكانات لغوية كثيرة، ووسع في استعمالات وأساليب لم يكن العرب يستعملونها من قبل. وهذا أمر صحيح ومتوقع ومقبول؛ لأنه عليه السلام من قريش، ونشأ في بني سعد، وأدبه ربه فأحسن تأديبه[1]، وهيأه لتبليغ الوحي فكان صلى الله عليه وسلم –بحق– أفصح العرب على الإطلاق.

ولعل ذلك ما يجعلنا ندخل إلى هذا الموضوع ونحن مطمئنون إلى أننا نلج باب كنز كبير من الثراء اللغوي الذي لا تنفد إمكاناته وطاقاته، ولا تحصى ظواهره، ولا تستقصى أبوابه، ولا يحاط بأساليبه، وذلك لأن الأحاديث النبوية أخذت فصاحتها من فصاحة القرآن الكريم، ولأن معظمها قد ورد إلينا مرويا بروايتين فأكثر

---

[1] – انظر: التصوير الفني في الحديث النبوي : ٢١، ٥٥١، أدب الإملاء والاستملاء: ١، منهج النقد في علوم الحديث: ٤١١، وقال عنه : مشهور لكن إسناده ضعيف أحاديث القصاص، لابن تيمية: حديث رقم: ٧٧.

ومعظم هذه الروايات كان بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعضه كان مرويا بالمعنى وبكثير من ألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم وتراكيبه.

المهم أن هذه الروايات المتعددة تحتشد فيها الإمكانات اللغوية، والاتساع التركيبي والأسلوبي والمعجمي احتشاداً قلّ أن يوجد مثله في كلام العرب مهما ارتفعت فصاحتهم، وسلمت لغتهم، والدليل على ذلك هو إعجاب سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وتعجبه من بلاغة الرسول عليه السلام وفصاحته وأنه يكلم جميع وفود العرب على حسب عاداتهم في النطق، وسلائقهم في الحديث الفصيح.[1]

وهناك أدلة أخرى على الإمكانات اللغوية الهائلة في الحديث النبوي، منها أننا نجد في رواية ما لحديث نبوي معين نموذجين فأكثر من التعدد؛ أحدهما صرفي، والآخر نحوي أو أحدهما صرفي والآخر معجمي، أو تعددين صرفيين، أو نحويين، أو معجميين وقد تجتمع هذه النماذج كلها في حديث نبوي واحد مروي بعدة طرق.

إذن ماذا نفعل أمام هذا البحر الزاخر من الإمكانات اللغوية التي لا تنفد؟

سؤال صعب، والإجابة عليه أشد صعوبة لولا أن منَّ الله علينا بفضله وكرمه وفتح علينا وشرح صدرنا لأن نعرض فقط للإمكانات اللغوية وألوان التوسع التي يمكن ضبطها، ويسهل الإمساك بها والنص عليها، ومحاولة تحديد مجالها أو تحديد مستواها التحليلي من أصوات وصرف ونحو ومعجم وأسلوب، مع التنبه إلى أن هذه الإمكانات دليل على غيرها، وإشارة إلى ما هو أوسع منها.

وينبغي أن ننبه كذلك إلى أننا قد نستثمر الرواية الواحدة للحديث الواحد في توضيح إمكانيتين لغويتين فأكثر، فنعرض مثالا في الصرف، وآخر في النحو...

وننبه كذلك إلى أننا سوف نحيل إلى رواية من روايات كثيرة تذكر نفس المثال مكتفين بذكر رقم الحديث في صحيح البخاري غالبا.

منهج البحث وأسلوب التحليل:

بعد أن تحددت فكرة البحث في الكشف عن الإمكانات اللغوية للحديث النبوي وتحدد هدفه في بيان التوافق بين هذه الإمكانات والخصائص اللغوية للعربية من جهة ووجود هذه الإمكانات والخصائص في عربية القرآن الكريم من جهة أخرى؛ بعد

---

[1] – انظر: التصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٥١، ومصادره.

تحديد ذلك كله انطلق البحث من المنهج الذي اتفق عليه اللغويون المحدثون حول التمييز الواضح بين مستويات التحليل اللغوي[1] التي تنطلق من الأصوات إلى الصرف إلى النحو إلى المعجم إلى الأسلوب، ولذلك اتفقوا على تفريع علم اللغة بحسب المستويات السابقة [2] إلى علم الأصوات، وعلم الصرف وعلم النحو، وعلم المعجم أو الدلالة، وعلم الأسلوب أو علم النص أو البلاغة.

وتبعا للتمييز السابق سوف يسلك البحث أسلوب التحليل الذي يلتزم بالخطوات التالية:

١- جمع الأحاديث النبوية التي تعددت رواياتها، بمعنى اتفاق هذه الروايات في الفكرة، أو موضوع الحديث، واختلافها في الألفاظ أو الصيغ أو التراكيب الجزئية.

٢- الموازنة بين لغة هذه الروايات واستخراج جميع الاختلافات اللغوية.

٣- تصنيف هذه الاختلافات الواردة في الروايات بحسب مستويات التحليل السابق، ولذلك وجب على البحث الكشف عن الإمكانات اللغوية في المستوى الصوتي، وفي المستوى الصرفي، والمستوى النحوي والمستوى المعجمي والمستوى الأسلوبي.

٤- عرض النماذج والأمثلة التي تنتمي إلى كل مستوى تحليلي مما سبق.

٥- نظرا للقلة الواضحة جدا للتوسع في المستوى الصوتي، ونظرا للكثرة الواضحة للتوسع في المستوى الأسلوبي، ولاسيما الروايات المتعددة للأحاديث النبوية الطويلة؛ اكتفى البحث باستعراض أمثلة التوسع في هذين المستويين بدون تصنيف داخلي.

أما أمثلة التوسع في المستوى الصرفي والنحوي والمعجمي فقد لجأ البحث إلى تصنيفها في كل مستوى تصنيفا داخليا، ولجأ كذلك في بعض الأحيان إلى تفريع هذا التصنيف الداخلي نفسه، وتقسيمه بحسب النماذج المجموعة.

1- انظر: أسس علم اللغة. تأليف ماريو باي، ترجمة د. أحمد مختار عمر: ٤٣-٤٤، مناهج البحث في اللغة. د. تمام حسان: ٢٨-٣٥، اللغة العربية معناها ومبناها. د. تمام حسان: ١٥-٤٠، دراسات في علم اللغة. د. كمال بشر: قسم ٢، ٢٠-٢١، الخطأ في العربية. د. نهاد الموسى مقال بمجلة الأبحاث ٥٦.

2- انظر: التفكير اللغوي بين القديم والحديث. د. كمال بشر: ٢١-٢٤.

٦- اكتفى البحث غالبا بأحاديث البخاري، كما اكتفى برواية واحدة مما ورد فيها التوسع مقارنة برواية أخرى لنفس الحديث.

٧- اقتصر البحث على ذكر الجزء الذي يمثل الظاهرة اللغوية المدروسة دون ذكر نص الحديث كله؛ لئلا يزيد حجم البحث زيادة ضخمة وغير مقبولة.

٨- اكتفى البحث بذكر رقم الحديث بعد المثال، أو التركيب المدروس مباشرة، دون اللجوء إلى ذكره في الهامش حتى لا تطول صفحات البحث.

وقد فعل ذلك مع الآيات القرآنية الواردة في البحث أيضا حيث اكتفى باسم السورة ورقم الآية بعد نص الآية مباشرة لنفس السبب السابق.

الإمكانات اللغوية في المستوى الصوتي:

يهتم هذا المستوى بالأصوات المفردة التي تدخل في تركيب الكلمات وبناء الصيغ وتشكيل الجمل، ويعني ذلك أن الوحدات الصوتية هي أصغر الوحدات اللغوية التي تتألف منها اللغة؛ فلا يمكن تحليلها أو تقسيمها إلى ما هو أصغر منها.

ولعل أوضح مثال للتوسع اللغوي في هذا المستوى الصوتي هو التبادل بين بعض الأصوات في نطق الكلمة وبقاء المعنى واحدا، وهو ما عرف في التراث اللغوي العربي بالإبدال اللغوي؛ أي نطق الكلمة الواحدة ذات المعنى الواحد بصورتين متفقتين في جميع الأصوات، ومختلفتين في صوت واحد، مثل (بزق) و (بصق).

وقد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأحاديث الشريفة مروية بطريقين فأكثر وكانت ترد في كل رواية كلمة من هذا الباب. ومن ذلك ما يلي:

١- الحديث الذي يعرض لبعض الأعراب الذين جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ومرضوا، فوصف لهم دواءً "فلما صحُّوا قتلوا الراعي؛ فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم في طلبهم فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم". (٤٠٢٧)

وجاء في رواية أخرى قوله عليه السلام: "وسمر أعينهم". (٤٠٣٠)

بالإبدال اللغوي بين صوتي (اللام) و(الراء)

٢- الحديث الشريف الذي يعرض رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في تسوية البيت على قواعد سيدنا إبراهيم عليه السلام، لولا أن القوم حديثوا عهد بالجاهلية. فقد ورد في إحدى الروايات قوله عليه السلام: "وألزقته بالأرض". (١٥٨١)

وجاء في الرواية الأخرى: "وأن ألصق بابه بالأرض" (١٥٨٤)

بالإبدال اللغوي بين صوتي (الزاي) و(الصاد)

٣- حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، وأوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة ألا يفزعوه قائلا لهم: "دعوه، وهريقوا على بوله سجلا من ماء" (٢٢٠)

وفي رواية: "دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء". (٦١٢٨)

وفي رواية ثالثة: "أريقو" بالهمزة بدلا من الهاء" (١٤١١١)

٤- في حديث قبض الصالحين الأول فالأول يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "وتبقى حفالة كحفالة التمر والشعير لا يعبأ الله بهم شيئا" (١٥٧/٥)

وفي رواية أخرى: "وتبقى حثالة كحثالة التمر والشعير...." (١٥٧/٥)

بالإبدال بين (الثاء) و(الفاء).

الإمكانات اللغوية في المستوى الصرفي:

يعد الصرف أحد فروع اللغة، ودراسته تعتبر مستوى تحليليا من مستويات علم اللغة، وهو يتعلق بالكلمات وأجزاء الكلمات من ناحية معناها الوظيفي الذي يؤثر في بناء الجملة، وهذا هو الفرق بينه وبين المعجم الذي يهتم بدلالة الكلمات خارج اللغة، أي بمعناها الإشاري، يتضح ذلك من ملاحظة الكلمات الآتية:

(أسد ، جمل، ذئب، زرافة، بقرة، ناقة....إلخ)

يهتم المعجم بتوضيح معنى كل كلمة مما سبق على حدة، أما الصرف فلا يهمه إلا التركيز على أن الكلمات السابقة: أسماء مفردة، جامدة، بعضها مذكر والآخر مؤنث.

وعلينا أن نلاحظ التحليل الآتي للكلمات التالية:

(أسد، أسدان، آساد، أسُود، أُسْد...)

يراها المعجم كلمة واحدة عندما يحاول شرحها بأنها دالة على ذلك الحيوان المعروف. أما الصرف فيراها في عدة حالات: الإفراد (أسد) ، والتثنية (أسدان) وجمع القلة (آساد) وجمع الكثرة (أسود، أُسْد). فالصرف يهتم بصيغة الكلمة، وهيئتها، وبنيتها أو وزنها، أما المعجم فيهتم بطبيعتها ومادتها ودلالتها الإشارية.

والوحدة الصرفية، أو المورفيم هي صيغة التحليل الصرفي، ويقسمها العلماء عدة تقسيمات نشير هنا إلى قسمين كبيرين وما ورد منهما في الروايات المتعددة للأحاديث النبوية المدروسة، وذلك في التفصيل الآتي:

التوسع في استعمال الوحدات الصرفية التصريفية:

نقصد بهذا النوع من الوحدات الصرفية تلك الكلمات وأجزاء الكلمات التي تعبر عن المفاهيم التالية:

١- **العدد**: وهو المفرد والمثنى والجمع بأنواعه المختلفة؛ السالم المذكر والسالم المؤنث، وجمع التكسير الدال على القلة، وجمع التكسير الدال على الكثرة.

٢- **التعيين**: وهو النكرة والمعرفة، وأنواع المعارف.

٣- **النوع أو الجنس**: وهو المذكر والمؤنث.

٤- **الشخص**: وهو المتكلم، والمخاطب، والغائب.

٥- **الزمن**: وهو الماضي والحال والاستقبال.

التوسع في استعمال العدد:

يضم العدد في صرف اللغة العربية المفرد، والمثنى، والجمع. وتنفرد العربية من بين لغات العالم باستعمال (المثنى) في مستوى الصرف، أي في الكلمات، أي أن العربية تعبر عن (مفهوم التثنية) من خلال الكلمات، وليس من خلال الجمل أو النصوص كما هو الحال في بقية لغات العالم. كما تنفرد العربية أيضا بالتفريق بين نوعين كبيرين من أنواع الجمع هما:

الجمع المصحح السالم، وهذا موجود في لغات العالم، وجمع التكسير الذي تمتاز به العربية، ولا يوجد في أية لغة أخرى غيرها.

ثم تختص العربية كذلك بالتفريق بين جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم؛ لأنها تميز بين التذكير والتأنيث في مستوى الكلمة المفردة.

ولعل هذا الاختصاص الذي تمتاز به العربية في هذا الجانب الصرفي هو الذي جعل أمثلة التوسع فيه كثيرة كثرة محلوظة في الأحاديث النبوية الشريفة التي رويت لنا متعددة، فهناك أحاديث وردت مستعملة بصيغة المفرد في رواية، وبصيغة الجمع في رواية أخرى، ولاسيما جمع التكسير بنوعيه: جمع القلة، وجمع الكثرة.

ونفهم من هذه الكثرة في الأمثلة النبوية في هذا الجانب أن الحديث النبوي الشريف جاء موافقا في خصائصه اللغوية لما تمتاز به العربية من خصائص، وتتوزع الروايات الواردة إلينا في هذا المجال على النحو التالي:

التوسع بين المفرد وجمع القلة: وردت أمثلة لهذا الجانب في أحاديث كثيرة، منها:

- أي العمل أفضل؟ (٢٦) أي الأعمال أفضل؟ (١٥١٩)
- العمل بالنية.(٥٠٧٠) الأعمال بالنيات. (٥٤)
- دعا بطعام (٢٠٩) دعا بالأطعمة. (٢١٥)

التوسع بين المفرد وجمع الكثرة:

وردت من ذلك الجانب من التوسع الأمثلة التالية:

- لا يلبس القميص (١٣٤) لا يلبس القُمُص (١٥٤٢)
- ولا العمامة (١٣٤) ولا العمائم (١٥٤٢)
- ولا البرنس (١٣٤) ولا البرانس (١٥٤٢)
- حتى نزلت آية الميراث (٥٦٥١) آية المواريث (٦٧٠٣)
- أرسلت كلبك المعلم (١٧٥) أرسلت كلابك المعلمة (٥٤٨٣)
- ماذا أنزل الليلة من الفتنة(١١٢٦) ماذا أنزل الليلة من الفتن. (١١٥)
- أتى بصبي (٢٢٢) يؤتى بالصبيان (٦٣٥٥)
- شجرة البادية (١٣١) شجر البوادي. (٦١)
- ولا ثوبا مسه الورس (١٣٤) ولا من الثياب شيئا مسه زعفران (٥٨٠٣)
- المغنم (٥٣) (المغانم) (٧٢٦٦)

التوسع بين المفرد وجمع المؤنث السالم: ورد منه ما يلي:

- العمل بالنية (٥٠٧٠) العمل بالنيات. (١)
- أمور مشبهة (٢٠٥١) مشبهات (٥٢)

التوسع بين المثنى وجمع التكسير: ورد منه ما يلي:

- لا يلبس الخفين (١٣٤) لا يلبس الخفاف (٥٨٠٣)

التوسع بين جمع التكسير وجمع المؤنث السالم: ورد منه:

- من يوقظ صواحب الحجر (٦٢١٨) صواحب الحجرات. (١١٢٦)

التوسع بين جمع التكسير وجمع الجمع: ورد منه:

- لا يلبس السراويل (٣٦٦) لا يلبس السراويلات (١٥٤٢)
- أيقظوا صواحب الحجر (٨٢٩٠) أيقظوا صواحبات الحجر. (١١٥)

التوسع بين اسم الجنس الجمعي وواحده: ورد منه:

- شجرا (٦٢) شجرة (١٣١)

- ولا تأتني بعظم ولا روث (١٥٥) ولا بروثة (٣٨٦٠)

التوسع في استعمال التعيين:

وردت بعض الأحاديث الشريفة بروايتين فأكثر، وقد استعمل في رواية منها اسم في حالة التنكير، واستعمل هذا الاسم نفسه في رواية أخرى في حالة التعريف، ومن أمثلة ذلك:

- غنم (١٩) الغنم (٣٦٠٠)
- رجل كانت عنده أمة(٩٧) الرجل تكون له الأمة (٣٠١١)
- أتى بصبي (٢٢٢) يؤتى بالصبيان (٦٣٥٥)
- لم يضره شيطان أبدا (٥١٦٥) لم يضره الشيطان أبدا. (٣٢٨٣)
- دعا بطعام (٥٤٥٤) دعا بالأطعمة (٢١٥)
- بسويق (٢٩٨١) بالسويق (٢١٥)
- ثوبا مسه ورس ولا زعفران (١٨٤٢) ثوبا مسه الورس ولا الزعفران(١٣٤)
- خمس صلوات (٤٦) الصلوات الخمس (١٨٩١)
- فدعا بماء (٦٠٠٢) فأتبعه الماء (٥٤٦٨)
- أنا قاسم (٧١) أنا القاسم (٣١١٦)
- صفق بالأسواق (٢٠٤٧) الصفق بالأسواق (١١٨)
- مملوك أدى حق مواليه وحق ربه (٥٠٨٣) المملوك إذا أدى حق الله (٩٧)
- عبد أدى حق مواليه وحق الله (٢٥٤٧) العبد إذا أدى حق الله(٣٠١١)

ومما يتصل بالتعيين – وإن كان أقرب إلى جانب النحو منه إلى جانب الصرف – مسألة أنواع المعارف، أو (درجات التعريف)

ذكرنا التوسع في استعمال التعيين من حيث التعريف والتنكير، ونذكر هنا التوسع في استعمال التعيين من حيث درجات التعريف أو أقسام المعارف؛ وذلك أن بعض الأحاديث الشريفة وردت بروايتين فأكثر ذكر في بعضها اسم معرف بأل، وفي بعضها الآخر ذكر معرفاً بالإضافة مع ملاحظة التنوع كذلك في تعريف المضاف إليه، وما إذا كان ضميرا، أو فيه أل أو مضافا لما فيه أل. ومن ذلك:

- لا يستتر من البول (٢١٨) لا يستتر من بوله (٢١٦)

- أقبلت الحيض (٣٠٦) أقبلت حيضتك (٢٢٨)
- قتلوا الراعي (٣٠١٨) قتلوا راعي النبي (٢٣٣)
قتلوا راعي رسول الله (٥٧٢٧)

وكان التعدد في الأمثلة السابقة بين المعرف بأل والمعرف بالإضافة، لكن بعض الأحاديث كان التعدد فيها بين المضاف إلى لفظ الجلالة والمضاف إلى الضمير العائد عليه:

- وسلّط عليهم رسول الله (١١٢) وسلط عليه رسوله (٢٤٣٤)
- من توضأ نحو وضوئي هذا (١٥٩) من توضأ مثل هذا الوضوء (٦٤٣٣)

التوسع في استعمال الضمائر الشخصية:

ينتمي هذا الجانب إلى الوحدات الصرفية التصريفية؛ لأن وحداته لا تغير الاشتقاق، ولا تغير أقسام الكلام، وإنما تحدد طبيعة الشخص أو الذات التي يعبر عنها الضمير من حيث حضوره، أو غيابه عن موقف الكلام، ومن حيث كونه متكلما أو مخاطبا في داخل موقف الكلام؛ ولذلك قسمت الضمائر إلى متكلم ومخاطب وغائب، أما ما يدل على العدد منها فيذكر في مجال العدد، مفردا أو مثنى أو جمعا، وما يدل على الجنس والنوع فيذكر في مجاله مذكرا أو مؤنثا.

وقد وردت أحاديث شريفة بروايات متعددة، وكان التعدد واقعا في الضمائر الشخصية مع احتفاظ الحديث بالدلالة على معناه العام أو الأساسي. ومن أمثلة ذلك:

التوسع بين ضمائر (الخطاب) وضمائر (الغيبة):

يكثر استعمال هذا النوع من التوسع عندما يتعلق الأمر بالتشريع مما يتصل بالأوامر والنواهي، فتارة يرد الحديث بالخطاب آمرا أو ناهيا من يوجد في موقف الخطاب من الصحابة، وتارة أخرى يرد الحديث بالغيبة؛ ليشمل الأمر أو النهي جميع الصحابة الذين لم يحضروا سماع الحديث، ثم يشمل عامة المسلمين من التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها (٣٩٤) فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره. (١٤٤)
- ولا تكلفوهم (٣٠) ولا يكلفه (٦٠٥٠)
- لو أن أحدكم إذا أراد أهله قال (١٤١) لو أن أحدهم إذا ... (٥١٦٥)

وردت جميع الأمثلة السابقة بروايتين الأولى بضمير الخطاب، والثانية بضمير الغيبة، والسبب في هذا التوسع –والله أعلم ورسوله– هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كأنه أراد أن يعلم الصحابة الحاضرين في المجلس، أو في موقف الحديث، وذلك عندما استعمل ضمير الخطاب. أما عندما استعمل ضمير الغيبة فكأنه صلى الله عليه وسلم أراد تعليم عامة المسلمين؛ من حضر المجلس ومن لم يحضر، .. من صاحبه ومن جاء بعده إلى يوم القيامة.

التوسع في استعمال الزمن:

وردت أحاديث نبوية كثيرة تعددت رواياتها، وكان التوسع فيها واقعا بين استعمال الفعل الماضي في رواية واستعمال الفعل المضارع في رواية أخرى. وهذا التعدد يكشف عن الإمكانات التركيبية التي تظهر في الحديث النبوي الشريف، ويوضح فائدتها في التعبير عن المعاني والدلالات التي يقوم عليها الإسلام. ومن أمثلة هذا التوسع ما يلي:

- من قام ليلة القدر (٣٧) من يقم ليلة القدر (٣٥)
- رأيت الناس عُرضوا عليّ (٣٦٩١) رأيت الناس يُعْرضون عليّ (٢٣)

والملاحظ أن معظم الأحاديث المجموعة ورد التوسع فيها بذكر الفعل الماضي مرة واحدة في رواية، وذكر فعله المضارع في رواية أخرى. ومن هذه الأفعال ما يلي:

- (توضأ (١٣٩) – يتوضأ(١٧١)) ، (صلى(١٥٩) – يصلي(١٦٠))، (اجترة (٣٦٩١) –يجتره (٧٠٠٩))
- (أكل (١٧٥)– يأكل(٥٤٨٣)) ، (أُتي(٢٢٢) – يُؤتي (٦٣٥٥)) ، (أتى (١٤١) – يأتي (١٥١٦))

كما أن هناك أحاديث ذكر في إحدى الروايات فعلان ماضيان فأكثر، وذكر في الرواية الأخرى فعلان مضارعان فأكثر، فمن الأحاديث التي ذكر فيها فعلان ماضيان في رواية، وفعلان مضارعان في رواية أخرى قوله صلى الله عليه وسلم: (ولوددت أني قاتلت في سبيل الله فقتلت ثم أحييت ثم قتلت، ثم أحييت...) (٢٩٧٢)

باستعمال الماضي، أما المضارع فاستعمل في قوله عليه السلام: (...ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل...) (٣٦)

ومنها كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (... رأيت الناس عُرضوا عليّ....، وعُرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص اجتره) (٣٦٩١) باستعمال الماضي (عرض) و(اجتر). أما الرواية الأخرى فهي بالمضارع (رأيت الناس يعرضون عليّ... وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجتره) (٧٠٠٩)

وهناك أحاديث أخرى ورد فيها ثلاثة أفعال، أو أربعة إلى سبعة، ومن ذلك:

- فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا (١٠٠) فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون. (٧٣٠٧)
- أتى أهله قال باسم الله فإن قدر بينهما ولد ما ضره الشيطان. (٤١)
يأتي أهله يقول باسم الله فإن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان. (٥١٦٥)
- رجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها. (٩٧)
الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن تأديبها ثم يعتقها فيتزوجها.(٣١١)

ويلاحظ على هذا الحديث أنه قد وردت فيه سبعة أفعال استعملت مرة بصيغة الماضي، ومرة أخرى بصيغة المضارع.

التوسع في استعمال الوحدات الصرفية الاشتقاقية:

يقصد بالوحدات الصرفية الاشتقاقية تلك (المورفيمات) التي تغير الكلمات من ناحية الاشتقاق، أي تلك الوحدات الصرفية التي تحول الفعل المجرد إلى الفعل المزيد، أو تنقل الفعل المزيد من صيغة إلى صيغة أخرى. هذا هو الأصل في هذا النوع من الوحدات، وهو خاص باللغات الاشتقاقية وعلى رأسها اللغة العربية، لكننا نستطيع أن نجعل في هذا القسم كذلك تحول المصدر إلى المصدر الميمي واسم المصدر، واسم المرة واسم الهيئة؛ لأن التغيرات الصرفية فيها تغيرات اشتقاقية.

وكان المتوقع أن نعرض لهذا النوع من الوحدات الصرفية أولا، قبل أن نعرض للنوع الآخر، وهو الوحدات الصرفية التصريفية؛ لأن بناء الكلمة، أو صياغة الوحدة الصرفية الأساس –جذرا، أو جذعا،– يتم أولا، ثم يحدث التصريف بعد ذلك، فنحن نشتق الفعل، أو المصدر، أو اسم الفاعل،... إلخ أولا، وبعد ذلك نحول الفعل إلى

مضارع أو مستقبل، ونحول اسم الفاعل إلى مثنى أو جمع ونجعله معرفة، أو نبقيه نكرة، كما نستعمله مذكرا، أو مؤنثا... وهكذا إلى آخر تلك الإجراءات التصريفية التي عرضنا جزءا كبيرا منها في الصفحات السابقة.

كان المتوقع أن نفعل ذلك، ولكن المادة المجموعة هي التي وجهتنا إلى ما صنعنا، وجعلتنا نعرض أمثلة التوسع الاشتقاقي بعد أمثلة التوسع التصريفي، لأن الأمثلة الاشتقاقية أقل ورودا، وأقل تنوعا.

التوسع في استعمال صيغ الفعل المجرد والمزيد:

من المعلوم أن العربية إحدى اللغات الاشتقاقية التي تبنى كلماتها عن طريق الاعتماد على الجذور البسيطة الثلاثية غالبا، والرباعية أحيانا، ويعني ذلك أن كلماتها بسيطة التركيب؛ لأنها تعود إلى أصل اشتقاقي واحد.

ومن المعلوم كذلك أن العربية من أوسع هذه اللغات الاشتقاقية تصرفا واستعمالا لعدد من الصيغ الاسمية والفعلية التي لا توجد في أخواتها الساميات.

وقد ظهرت هذه الخصيصة من الاتساع الاشتقاقي في الحديث النبوي الشريف في استعمال الصيغ الفعلية المجرد منها والمزيد، والأمثلة التالية توضح ما نقول.

١- التوسع بين استعمال (فَعَل) و(فَعَّلَ):

- (فلعل بعض من يَبلُغُه أن يكون أوعى له مَنْ بعض من سمعه) (٥٥٥٠)، بصيغة (يبلغ) المجردة في هذه الرواية، وهناك رواية مزيدة بتضعيف العين في قوله صلى الله عليه وسلم: (فإن الشاهد عسى أن يُبلِّغ من هو أوعى منه) (٦٧)

التوسع بين استعمال (فَعَل) و(افتعل):

- (وعُرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرُّه) (٢٣) باستعمال الصيغة المجردة، أما الصيغة المزيدة فقد وردت في قوله عليه السلام: (وعليه قميص يجتره) (٧٠٠٩) بوزن افتعل.

التوسع بين استعمال (فَعَل) و(استفعل):

- (من توضأ فلينثر) (١٦) باستعمال المجرد، أما استعمال المزيد ففي الرواية: (فليستنثر) (١٦١) بوزن (استفعل).

التوسع بين استعمال (فعل) و(تفاعل)

- (ولا تحت ورقها) (٦١٤٤) باستعمال (فَعَلَ)، و(لا يتحات ورقها) (٩٨) باستعال (تفاعل).

التوسع في استعمال أفعل وتَفعَّل:

- (فأيكم ما صلّى بالناس فليتجوّز ..) (٧٠٢) باستعمال صيغة تفعّل، أما الرواية الأخرى فهي (فأيكم ما صلى بالناس فليوجز ...) (٧١٥٩) باستعمال صيغة أفعل.

التوسع في استعمال (فَعَّل) و(تفعَّل)

- (سمّوا باسمي) (٣٥٣٩) باستعمال صيغة (فعَّل) ، أما الرواية الأخرى فهي: (تسموا باسمي) (١١٠) باستعمال صيغة (تفعَّل).

التوسع في استعمال فاعل وتفعل:

- (... ومن والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله...) (٣١٧٩) باستعمال صيغة فاعل، والرواية الأخرى وردت باستعمال صيغة تفعل: (... ومن تولي قوما بغير إذن مواليه فعيه لعنة الله...) (١٨٧٠).

التوسع بين استعمال الفعل واسم الفاعل:

هناك علاقة دلالية، واشتقاقية، ووظيفية تركيبية بين الفعل المبني للمعلوم، ولاسيما المضارع واسم الفاعل من ذلك الفعل؛ ولعل هذه العلاقة هي التي سوغت التبادل بينهما في الاستعمال في بعض السياقات في اللغة العربية. وقد جاء الحديث النبوي الشريف موافقا لخصائص العربية في هذا الشأن، ومعبرا عن هذه الإمكانة اللغوية التي تكشف عن الاتساع اللغوي الذي تمتاز به هذه اللغة المقدسة. ومن أمثلة التبادل في الاستعمال بين الفعل واسم الفاعل ما يلي:

- (... وإنما أنا قاسم والله يعطي) (٧١) باستعمال المضارع، وجاءت الرواية الأخرى: (والله المعطى وأنا القاسم) (٣١١٦) باستعمال اسم الفاعل.
- (قد كنا نعلم إن كنت لتؤمن به) (٩٢٢) باستعمال المضارع، وفي الأخرى: (إن كنت لمؤمنا) (١٨٤) باستعمال اسم الفاعل.

التوسع بين استعمال الفعل واسم المفعول:

تصدق العلاقة الدلالية والاشتقاقية والوظيفية التي بين الفعل واسم الفاعل على اسم المفعول كذلك، مع فارق واحد، وهو سريان هذه العلاقة على الفعل المبنى

للمجهول، فاسم الفاعل مع المبنى للمعلوم، واسم المفعول مع المبنى للمجهول، وهذا أمر مقرر بين علماء العربية.

وقد وردت بعض الأحاديث النبوية بروايتين فأكثر معبرة عن هذه الإمكانة اللغوية في التوسع، ومن أمثلتها:

- (... فمن ترك ما شُبِّه عليه...) (٢٠٥١) باستعمال الفعل المبنى للمجهول في هذه الرواية، وفي الرواية الأخرى: (فمن اتقى المشبهات...) (٥٢) استعمل اسم المفعول من الفعل السابق، وذلك بالتبادل بينهما.

التوسع بين استعمال الفعل والمصدر بأنواعه المتعددة:

هناك علاقة وثيقة جدا بين الفعل والمصدر، بلغت حداً جعل النحاة العرب يختلفون حول أيهما أصل للآخر. وقد وردت بعض الأحاديث الشريفة معبرة عن هذه العلاقة، فجاءت رواية باستعمال الفعل، ورواية أخرى لنفس الحديث النبوي باستعمال المصدر. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (... أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة) (٦١٧٦) باستعمال فعل الأمر (أقيموا) و(آتوا). أما الرواية الأخرى فقد جاءت بالمصدر : (... وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)(٥٣)

- (... واغدوا وروحوا...) (٦٤٦٣) باستعمال فعل الأمر (اغدوا) و(روحوا). وقد وردت الرواية الأخرى باستعمال: (...واستعينوا بالغدوة والروحة...) ٣٩.

ويلاحظ أن التبادل وقع بين الفعل والمصدر الدال على المرة، ومنه كذلك:

- (... دعى الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها..) (٣٢٥) باستعمال المضارع (تحيضين)، وفي الرواية الأخرى استعمل اسم المرة: (فإذا أقبلت الحيضة فاتركي الصلاة...) (٢٢٨).

وهناك توسع بين استعمال الفعل والمصدر الميمي، وذلك في روايات الحديث التالي:

- (... أن تؤدوا إليَّ خمس ما غنمتم...) (٥٢٣) باستعمال الفعل (غنم) والرواية الأخرى: (وأن تعطوا من المغنم الخمس...) (٥٣) باستعمال المصدر الميمي (المغنم).

وهناك توسع جمع بين الفعل والمصدر الميمي واسم المصدر، وذلك في روايات الحديث التالي:

- (فقلت: الصلاة يا رسول الله... فقال صلى الله عليه وسلم: الصلاة أمامك) (١٣٩).

وفي رواية: (المصلّى أمامك) (١٦٦٧)، وفي رواية ثالثة: (تصلّي...) (١٨١) فالصلاة اسم مصدر من (صلّى) والمصلّى مصدر ميمي منه، وتصلّي: مضارعه.

الإمكانات اللغوية في المستوى النحوي:

خصص اللغويون هذا المستوى لدراسة الجملة، وشبه الجملة، وذلك من زوايا كثيرة، أجملها بعضهم في :الاختيار والموقعية والمطابقة والإعراب. [1]

ويكون الاختيار في العناصر الصغرى للجملة كالمبتدأ والخبر والفعل والفاعل والحال والتمييز ونوع حرف الجر...إلخ.. كما يكون في النمط العام للجملة من حيث كونها جملة اسمية أو فعلية، وخبرية أو إنشائية، ومؤكدة أو غير مؤكدة.

وتكون الموقعية حرة، ومقيدة، ويدخل الذكر والحذف في جانب المطابقة ويأتي الإعراب إطارا عاما وحاكما ضابطا للمعنى النحوي المراد التعبير عنه.

هذه صورة مجملة شديدة الإجمال للنظام النحوي، أو المستوى النحوي في اللغة بصفة عامة. وتمتلك اللغة العربية إمكانات لغوية كثيرة وضخمة في هذا المستوى قَلَّ أن تشاركها فيها لغة أخرى.

تمتلك الإعراب نظاما كاملاً، وتمتلك المطابقة والانسجام بين كثير من عناصر الجملة، وتمتلك الموقعية الحرة إلى جانب الموقعية المقيدة...إلخ.

وقد جاء الحديث النبوي جامعا لهذه الإمكانات كلها ومعبراً عن جزئياتها في كثير من رواياته المتعددة مما سنكشف عن بعضه في النماذج التي نعرض لها هنا بادئين بما ينتمي إلى الأنماط العامة للجملة.

التوسع بين الخبر والإنشاء:

وردت أحاديث نبوية شريفة بروايتين فأكثر، واحدة بالأسلوب الخبري، والثانية بالأسلوب الإنشائي، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز...) (٧٠٢)

هكذا بالخبر المؤكد بإن.وفي ثلاث روايات أخرى ورد مسبوقا بالنداء:

- (يا أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز...) (٩٠)

---

[1] - دراسات في علم اللغة د. كمال بشر . قسم ٢ ١٤٩.

ومن ذلك أيضا تلك الروايتان اللتان وردت إحداهما بالخبر والأخرى بالإنشاء.

- (تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم)
- (أدوا إليهم حقهم، وسلو الله حقكم).

ومن ذلك أيضا: (تحته، ثم تقرصه بالماء، وتنضحه، وتصلي فيه) (٢٢٧)، وهذه الرواية جاءت بأسلوب الخبر، أما رواية الإنشاء فهي: (فلتقرصه، ثم لتنضحه بماء، ثم لتصلى فيه) (٣٠٧)، فقد وردت الأفعال كلها مقترنة بلام الأمر، وهو من الإنشاء الطلبي.

ومن جملة الأحاديث المجموعة حديث بيعة العقبة الذي ورد إلينا بعدة روايات جاء بعضها بصورة الجملة الخبرية، وكثير منها في صورة الجمل الإنشائية المتنوعة على التفصيل التالي:

- (أبايعكم على ألا تشركوا بالله شيئا، .....،...)(٦٨٠١) والرواية هنا خبر.
- (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا، .....،...)(١٨) والرواية هنا إنشاء أمر.
- (تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا،.،.)(٣٨٩٢) والرواية هنا أمر بعد أمر.
- (أ تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا،....،...) (٤٨٩٤) والرواية إنشاء استفهام.
- (تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ..،..) (٧٢١٣) والرواية هنا إنشاء استفهام.

التوسع بين توكيد الجملة واطلاقها:

تمتلك اللغة العربية في هذا السياق إمكانتين لغويتين كبيرتين هما بناء الجملة أو التركيب بلا توكيد، وبناؤها بتوكيد واحد فأكثر.

ومن الملاحظ أن الحديث النبوي الشريف قد كثرت فيه أساليب التوكيد، كما كثرت فيه الأحاديث التي وردت بروايات متعددة بعضها مؤكد، وبعضها غير مؤكد وذلك بحسب حالات المخاطبين، وموضوعات الخطاب التي يشتمل عليها الحديث.

ونعرض هنا للأحاديث التي رويت مرة بدون توكيد، ومرة أخرى بتوكيد، ومن ذلك ما يلي:

- (الأعمال بالنيات) (٥٤)، وفي رواية أخرى: (إنما الأعمال بالنيات) (١)

- (إخوانكم خولكم) (٣٠)، وفي رواية أخرى : (إن أخوانكم خولكم) (٢٥٤٥)

- (هو اختلاس يختلسه الشيطان) وفي رواية أخرى: (إنما هو اختلاس يختلسه الشيطان)

- (من أشراط الساعة أن يقل العلم) (١٨) وفي رواية أخرى: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم) (٨٠)

- (وهي مثل المسلم) (١٣١)، وفي الأخرى: (وإنها مثل المسلم) (٦١).

كانت أداة التوكيد في الروايات السابقة هي (إن) أو (إنما)، وهناك أدوات توكيد أخرى مثل نون التوكيد التي وردت بعض الأحاديث النبوية مؤكدة بها في رواية وغير مؤكدة في رواية أخرى، مثل:

- (لا يتمنى أحدكم الموت) (٧٢٣٥) وفي الرواية الأخرى: (لا يتمنين أحدكم الموت) (٥٦٧٣)

وهناك نمط تركيبي في الحديث النبوي يجمع بين التوسع في استعمال إمكانيتين لغويتين في وقت واحد هما توكيد الجملة، وتحويلها من النمط الفعلي إلى النمط الاسمي وذلك بالإتيان بإن واسمها وجعل الجملة الفعلية المذكورة في رواية خبراً لإن واسمها في رواية أخرى، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (ولا يتمثل الشيطان بي) (٦٩٩٣) وفي رواية: (فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي) (١١٠)

- (خرجت لأخبركم بليلة القدر) (٢٠٢٣) وفي رواية: (إني خرجت لأخبركم بليلة القدر) (٤٩)

- (بني الإسلام على خمس) وفي رواية: (إن الإسلام بني على خمس)

- (يعذبان....) (٢١٦) وفي رواية: (إنهما ليعذبان...) (٢١٨)

- (فتلاحى فلان وفلان) (٢٠٢٣) وفي رواية : (وإنه تلاحى فلان وفلان)(٤٩)

التوسع بين استعمال الجملة الفعلي والاسمية:

وردت بعض الأحاديث النبوية بروايتين فأكثر، وكانت إحدى الروايات بالجملة الفعلية، والرواية الأخرى بالجملة الاسمية، ومن ذلك ما يلي:

- (ويعطي الله) (٧٣١٢) . والرواية الأخرى هي: (والله يعطي) (٧١).

التوسع في استعمال الجار والمجرور والظرف:

يحتل الظرف والجار والمجرور موقعا متميزا في تراكيب اللغة العربية من حيث المواقع التي يشغلانها، ومن حيث الوظائف ا لتي يعبران عنها، ومن حيث المواضع التي لهما حرية التنقل فيها بين عناصر الجملة. وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة توضح ذلك كله وتكشف عن خصائص العربية فيه، لكن الذي يهمنا هنا هو بيان التوسع في استعمال كل منهما بدلا من الآخر وبقاء المعنى واحداً في كلا الاستعمالين، وهذه إمكانة لغوية قد ينفرد بها الاستعمال النبوي الشريف، أقول – بحسب مبلغ علمي – قد ينفرد بها. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (يرده إلى مسكنه بما نال من أجر) (٧٤٦٣)، والرواية الأخرى: (يرده إلى مسكنه مع ما نال من أجر) (٧٤٥٧)بالتبادل بين باء الجر ومع.
- (فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة) (٩٠) والرواية الأخرى: ،فإن خلفه الضعف والكبير وذا الحاجة) (٧٠٤)، بالتبادل بين (فيهم) و(خلفه)
- (فرفعت بصري إلى السماء) (٦٢١٤)، وفي رواية أخرى: (فرفعت بصري قبل السماء) (٣٢٣٨)
- (ممثلتين في قُبل هذا الجدار) (٦٤٦٨) وفي رواية: (ممثلتين وراء الحائط) (٦٣٦٢)
- (ممثلتين في قبلة هذا الجدار) (٧٤٩) وفي الرواية الأخرى: (ممثلتين دون الحائط) (١٤٩٣)

التوسع في استعمال أحرف العطف:

تمتلك اللغة العربية مجموعة من الأحرف التي تفيد العطف تبلغ تسعة أحرف، لكل حرف منها وظيفة ودلالة خاصة داخل الباب نفسه ولكن العربية سمحت في بعض السياقات والتراكيب أن يستعمل حرف مكان آخر. وقد وقع ذلك في بعض

الروايات التي وردت بها بعض الأحاديث النبوية، كأن تتبادل (الواو) مع (الفـــاء) أو تتبادل مع (ثم) ... ، وهكذا، كما يتضح مما يلي:

التبادل بين (الواو) و(ثم): وقع هذا التبادل بين روايات الحديث التالي:

- (... وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلى) (٣٣١)، وفي الرواية الأخرى: (... وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلى) (٢٢٨)

استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم في الرواية الأولى (الواو) وفي الروايـــة الثانية (ثم)

التبادل بين (الواو) و(الفاء): وقع هذا التبادل بين روايات الحديث التالي:

- (فوقع في نفسي أنها النخلة)، وفي رواية : (ووقع في نفسي أنها النخلة) حيث ورد الحديث بالفاء في رواية، وبالواو في رواية أ خرى.

التبادل بين (الفاء) و(ثم): وقع هذا التبادل في روايات الحديث التالي:

- (ومن أصاب من ذلك شيئا فـــستره الله فـــأمره إلى الله...) (٣٨٩٢) وفي الرواية الأخرى: (ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله...) (١٨)

ومن هذه الأمثلة كذلك: (وتنضحه ، وتصلى فيه) (٢٢٧) بالعطف بـــالواو أما العطف بثم ففي الرواية (ثم لتنضحه بماء، ثم لتصلى فيه) (٣٠٧)

التوسع في استعمال الاسم الظاهر والضمير:

وردت بعض الأحاديث النبوية بروايتين فأكثر، وقد استعمل الاسم الظـــاهر في رواية، واستعمل الضمير في رواية أخرى... ومن ذلك ما يلي:

- (إذا أتى أحدكم الغائط ...) (١٤٤) باستعمال الاسم الظاهر (أحد) فاعلا للفعل (أتى)، وفي الرواية الأخرى: (إذا أتيتم الغائط...) (٣٩٤) باســـتعمال (تـــاء) الفاعل بعد الفعل (أتى).

ومن أمثلة التوسع بين الظاهر والمضمر:

- (فبال على ثوبه) (٢٢٢) بدخول حرف الجر (على) الاسم الظاهر (ثـــوب) وفي الرواية الأخرى: (فبال عليه) (٥٤٦٨) بدخول حرف الجر على الضمير، وهـــو الهاء في (عليه).
- (فأمره إلى الله...) (٣٨٩٢) باستعمال الاسم الظاهر (أمر) . وفي الروايـــة الأخرى (فهو إلى الله...) (١٨) باستعمال الضمير (هو).

التوسع في استعمال أدوات الشرط:

تكثر الأدوات التي تفيد الشرط في اللغة العربية، وتتنوع ما بين أدوات شرط جازمة وأدوات شرط غير جازمة، وتنقسم إلى أحرف شرط، وأسماء شرط، ... وهكذا.

وقد وردت بعض الأحاديث النبوية مروية بروايتين فاكثر، وفي كل رواية كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعمل أداة شرط بعينها تختلف عن الأداة التي استعملها في الرواية الأخرى. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (..فمن صلى بالناس فليخفف.) (٩٠)، وفي رواية:(فمن أم الناس فليتجوز) (٧٠٤)
- (...فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز...) (٧٠٢) (٦١١٠)

استعمل صلى الله عليه وسلم اسم الشرط (مَنْ) في روايتين، واستعمل عليه السلام (أيّ) في روايتين كذلك، ومعنى الأداتين واحد، فهما يستعملان للعاقل.

التوسع بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول:

وردت بعض الأحاديث الشريفة بروايتين فأكثر، واستعمل في إحدى الروايات الفعل مبنيا للمعلوم، وفي الرواية الأخرى استعمل نفس الفعل مبنيا للمجهول ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (خشية أن يكبه الله في النار) ببناء الفعل (يكب) للمعلوم، والتصريح بالفاعل وهو لفظ الجلالة. أما الرواية الثانية فهي (خشية أن يُكَبَّ في النار على وجهه) بحذف الفاعل وبناء الفعل للجمهول.
- (ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن؟) (٧٠٦٩) بالبناء للمعلوم. والأخرى: (ماذا أنزل من الخزائن وماذا أنزل من الفتن؟) (٦٢١٨) بالبناء للمجهول.
- (فأمر بلالاً) بالبناء للمعلوم، وفي الرواية الأخرى: (فأمر بلالٌ) بالبناء للمجهول.

التوسع في استعمال حروف الجر:

من صور التوسع في الإمكانات اللغوية للعربية تناوب حروف الجر، والتبادل فيما بينهما في الاستعمال وأداء المعاني الوظيفية المنوطة بها. وقد جاءت روايات بعض الأحاديث النبوية مؤكدة هذه الإمكانة حيث يرد الحديث الواحد مرويا بروايتين

فأكثر مستعملا حرف جر في رواية ومستعملا حرف جر آخر في رواية أخرى. ومن ذلك:

- (إن الله وكل في الرحم ملكا...) باستعمال (في) وفي رواية : (إن الله وكل بالرحم ملكا...) باستعمال (الباء)، والمعنى واحد، وهو الظرفية.
- (قد أذن أن تخرجن في حاجتكن) (١٤٧) باستعمال (في)، وفي رواية أخرى: (إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن) (٤٧٩٥) باستعمال (اللام).

التوسع بذكر الوحدة النحوية وحذفها:

تكلم العلماء والنحاة عن الذكر والحذف كثيرا، وأجمعوا على أن كل ما يُعْلم، أو يُفهم من الكلام يجوز حذفه، سواء كان المحذوف جزء كلمة، كما في ترخيم المنادي، أو كان كلمة تقع مبتدأ أو خبرا، أو مفعولا به، أو نعتا... إلخ. وقد يكون المحذوف جملة فأكثر وذلك فيما سموه (حذف القصة).

والذي نعرض له هنا هو الروايات المتعددة للحديث النبوي الواحد مما وقع فيها أو في بعضها توسع بالذكر والحذف، مثل ذكر المفعول به في رواية وحذفه في رواية أخرى لنفس الحديث.

ولما كانت نماذج الحذف كثيرة كثرة تفوق الحصر، حاولنا التمثيل لبعضها فقط مع محاولة التصنيف والتقسيم، وذلك في الخطوط العريضة التالية:

أ- التوسع بذكر المفعول به وحذفه:

سواء كان هذا المفعول به اسما ظاهرا، أو ضميرا متصلا، ومن أمثلة ذلك:

- (إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة) (٥٣٥١)، بذكر المفعول به نفقة. وفي الرواية الأخرى: (إذا أنفق الرجل على أهله وهو يحتسبها..) (٥٥) بحذف المفعول به.

التوسع بذكر الجار والمجرور، وحذفهما:

وردت أحاديث شريفة بذكر الجار والمجرور في رواية وحذفه من الرواية الأخرى، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (خشية أن يكب في النار على وجهه) بذكر (على وجهه) . وجاءت الرواية الأخرى بالحذف: (خشية أن يكبه الله في النار) ، أي بحذف (على وجهه).
- (فعوقب به في الدنيا...) (٣٨٩٢) بذكر (به)، وجاءت الرواية الأخرى بالحذف، (فعوقب في الدنيا) (١٨).

- (إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس)، بذكر (من نعم الله)، وجاءت الرواية الأخرى بحذفهما:
(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ).

التوسع بذكر أن بعد لعل ، وعدم ذكرها:

وردت أحاديث نبوية استعمل فيها ٠لعل) وقد ذكرت بعده (أن) المصدرية الناصبة في رواية، ولم تذكر في رواية أخرى، ومن ذلك ما يلي:

- (لعله أن يخفف عنهما) (٢١٦) بذكر أن، وفي الأخرى: (لعله يخفف عنهما) (٢١٨) بحذفها.
- (لا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب) (٥٦٧٣) بذكر أن بعد لعل في الموضعين. أما الرواية الأخرى فجاء فيها: (لا يتمنى أحدكم الموت إما محسنا فلعله يزداد وإما مسيئا فلعله يستعتب) (٧٢٣٥) بحذف أن في الموضعين.

- التوسع بذكر حرف النداء وحذفه:

وردت بعض الأحاديث النبوية مروية بروايتين فأكثر، وقد ذكر المنادي مسبوقا بحرف النداء مرة، وبحذفه مرة أخرى، ومن ذلك ما يلي:

- (فخرج موسى في أثره يقول: ثوبي يا حجر...) (٢٧٨) بذكر أداة النداء (يا) مع المنادى (حجر). وفي رواية أخرى: (ثوبي حجر ، ثوبي حجر) (٣٤٠٤)، بحذف أداة النداء، والاكتفاء بذكر المنادى.

التوسع بذكر العائد على الموصول وحذفه:

وردت بعض الأحاديث الشريفة وقد ذكر العائد على الموصول في رواية، وحذف هذا العائد في رواية أخرى، ومن ذلك ما يلي:

- (لا نورث ما تركناه صدقة) (٥/١٥١) بذكر الهاء العائد على (ما)، وفي الرواية الأخرى: (لا نورث ما تكرنا صدقة) (٤/١٩) بحذف الهاء.

وإذا كان العائد في الحديث السابق في محل نصب، وكان حذفه أكثر من ذكره، ففي الحديث التالي كان العائد في محل رفع، وقد بالذكر والحذف كذلك:

- (ولم يخص قريبا دون من هو أحوج إليه) (٤/٩١) بذكر (هو) العائد على الموصول (مَنْ)، وفي الرواية الأخرى: (ولم يخص قريبا دون من أحوج إليه) (٤/٩١) بحذف العائد (هو).

الإمكانات اللغوية في المستوى المعجمي.

نقصد بالجانب المعجمي، أو المستوى المعجمي في هذا البحث كل ما يتعلق بالوحدات المعجمية من كلمات وتعبيرات اصطلاحية وتعبيرات سياقية تدل على معنى إشاري مفرد، أي أن الكلمة أو التعبير الاصطلاحي يشير إلى معنى، أو دلالة، أو شيء خارج اللغة، كدلالة لفظ (الحائط) أو (الجدار) على ذلك الشيء المبني القائم الذي يستر ما خلفه، وتتألف منه مع غيره من الحوائط والجدر ما يسمى حجرة، أو بيتاً.

إذن يقصد بالمستوى المعجمي الكلمات المعروضة على صفحات المعجم اللغوي مما له دلالة إشارية خارج اللغة، ويتولى المعجم شرح هذه الدلالة وتفسيرها بطريقة من طرق الشرح المعروفة في المعاجم.

ومع أن هذا الجانب يتعلق بالكلمات المفردة، والتعبيرات الاصطلاحية التي تدل على ما تدل عليه الكلمات المفردة إلا أن الحديث النبوي الشريف مارس توسعا ضخما في التعبير فيه عن طريق التعدد المعجمي الذي سلك طرقا شتى نستطيع أن نتبينها في الخطوط العامة التالية:

١- اتساع التعبير عن طريق ذكر المرادف:

يتوقع أن تتعدد رواية الحديث النبوي الشريف بذكر لفظ في رواية، وذكر لفظ آخر يرادفه في رواية أخرى بحيث يظل المعنى العام للحديث النبوي واحداً، وبحيث يشير الحديث النبوي مع تعدد رواياته إلى الاتساع والغنى والثراء اللغوي الذي يتمتع به الحديث الشريف.

وبعيدا عن المناقشات التي خاضها اللغويون قديما وحديثا حول موضوع الترادف، ومدى وقوعه في اللغة، وحول أقسامه الواردة عند الذين أقروا بوقوعه، وحول الآثار اللغوية التي يتركها أو تترتب عليه؛ بعيدا عن ذلك كله، نرصد أمثلته التي وردت في الحديث الشريف، تلك الأمثلة التي دلت على اتساع التعبير في الحديث، وكشفت عن جانب كبير من جوانب الإمكانات اللغوية التي يزخر بها الأدب النبوي الرشيد، كما نرصد قسميه الكبيرين من أمثلة الترادف التام، والترادف شبه التام، فيما يلي:

أ- أمثلة الترادف التام:

وردت أحاديث نبوية كثيرة تعددت رواياتها بأمثلة من الترادف التام، ولعل هذا المظهر من التعدد، أو التوسع هو الأقرب من المتوقع؛ لأننا نطلب الحديث الذي

يعبر عن معنى واحد، أو فكرة واحدة، أو موضوع واحد مهما تعددت رواياته، فإذا كان التعدد بالترادف التام دل ذلك على وحدة الموضوع. كما أن هذه الكثرة تشير إلى الاتساع المعجمي الذي تحظي به اللغة العربية ويتضح أثره في الحديث الشريف.

ومن أمثلة التعدد بالترادف التام ما يلي:

- (إذا أقبلت الحيضة فاتركي الصلاة) (٣٠٦) . وفي الرواية الأخرى: (إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة). (٣٢٥)

وهناك أمثلة كثيرة جدا نكتفي بالنص فيها على الكلمات المترادفة ترادفا تاما فقط فيما يلي:

(من فضة (٦٥) = من ورق (٥٨٧٧)) ، (عفا عنه (١٨) = غفر له(١٨٩٤)) (جالسا(٤)= قاعدا(٤٩٢٦))، (فلا يتفلن(٤١٢)= فلا يبزقن(٤٠٥)) (عدل إلى(١٨١) = مال إلى(١٦٦٧)) (يلقي(٢١) = يقذف(١٦)) (يعود(٢١) = يرجع(٦٠٤١)) (بالأزواد (٢٠٩) = بالأطعمة(٢١٥)) (قائم = واقف) (لاينفتل (١٣٧)= لا ينصرف(١٧٧)) (ستلقون = ستجدون) (يُلْقى(٢١) = يقذف(١٦)) (تحت = أسفل) (الجدار(٧٤٩) = الحائط (٥٤٠)) (فرعبت منه (٤) = ففرقت منه (٤٩٥٤) = فجئت منه (٤٩٢٥))

ويلاحظ على هذه الأمثلة، وغيرها مما لم نذكره، أنها تتنوع بين الأسماء والأفعال والظروف، والمصادر، وهذا اتساع لغوي آخر يزخر به الحديث النبوي الشريف.

ب- أمثلة الترادف شبه التام:

تكثر الأحاديث النبوية التي وردت بروايتين فأكثر، وكان التوسع فيها بذكر اللفظ في رواية وذكر ما يرادفه ترادفا شبه تام في رواية أخرى. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- (أيما رجل كانت له جارية فأدبها...) (٢٥٤٧) و(الرجل تكون له الأمة فيعلمها...) (٣٠١١) و(أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها...). (٥٠٨٣)

وقع في هذا الحديث برواياته المتعددة ترادف شبه تام بين (جارية) و(أمة) و(وليدة)، وجعلناه ترادفا شبه تام لأن المعنى في هذه الكلمات ليس متطابقا تماما في جميع النواحي والاستعمالات.

- (وصبّ علي من وضوئه) (ثم نضح على من وضوئه (ثم رش عليّ)

- (رأيت أبا ذر(٦٠٥٠) = لقيت أبا ذر(٣٠))
- (بشبع بطنه(٦١١٨) = علي ملء بطني(٢٠٤٧))
- (أشهد إذا غابوا(٢٠٢٧) = أحضر ما لا يحضرون(١١٨))

وهناك أمثلة أخرى كثيرة نذكر منها الألفاظ المترادفة فقط فيما يلي:

(تعطوا(٨٧) =تؤدوا(٣٠٩٥)) (نأتيك (٨٧)= نصل إليك (٣٠٩٥) = نخلص إليك(١٣٩٥)) (اتقى = ترك) (عاقبه (٧٢١٣) = عذبه(٧٤٦٨)) (عُرض عليّ (٢٣) = مَرَّ علي (٧٠٠٨)) (أدبر (٢٢٨) = ذهب(٣٠٦)) (أكفأ = أفرغ) (فليخفف (٩٠) = فليتجوز(٦١١٠)) (تزيد = تضعف) (تزيد = تضعف= تفضُل) (لا يقبض (١٠٠) = لا ينزع (٧٣٧٠)) (نحو (١٥٩) = مثل (٦٤٣٣))

٢- التوسع بذكر الخاص بعد العام:

وردت أحاديث نبوية شريفة وقد تعددت رواياتها، وكان التعدد، أو التوسع واقعا بين ذكر لفظ عام، ولفظ خاص، أي يشير اللفظ الأول إلى كثيرين، أو يدل على أفراد كثيرين ويشير اللفظ الثاني إلى أفراد أقل، ولعل أوضح مثال على ذلك مما عثرنا عليه في المادة المجموعة قوله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته) (٣٦/١٧) وفي رواية أخرى يقول عليه السلام (أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها) (٣٦/١٧).

فلفظ (شيء) في الرواية الأولى عام يشمل أفرادا كثيرين، أما لفظ (دابة) فخاص يدل على أفراد قليلين... ما يدبّ على الأرض فقط، أما الأول فيدل على ما يدبّ على الأرض، وما لا يدبّ.

ومن هذه الأمثلة كذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

- (إذا انفق الرجل على أهله يحتسبها...) (٥٥) وقوله عليه السلام: (إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها...) (٥٣٥١). وذكر (المسلم) مع (الرجل) في حديث آخر ورد بعدة روايات (١٩) ، (٣٣٠٠).

فلفظ (الرجل) ذو دلالة عامة، ولفظ (المسلم) ذو دلالة أخص من الأولى.

ومن ذلك أيضا: (خير = إيمان) (المرء (١٦) = عبدا (٢١)) (وَجَد (٢١)= ذاق(٩٤٦)) (يمشي (٢١٦) = يسعى(١٣٧٨)) (عوداً رطبا (١٣٧٨) = عسيب رطب(٦٠٥٢)) (النعم (٢٣٣) = الإبل(٥٦٨٦) = الذود(١٥٠١)) (القارئ=

الإمام) (رأسي (٤٩٢٢)= بصري(٤)) (المسلم (٦١) = المؤمن(٢٢٠٩)) (المسلمين (٣٢٤) = المؤمنين (١٦٥٢))

٣- التوسع بذكر المسبب بعد السبب:

وردت بعض الأحاديث الشريفة بروايتين فأكثر وقد ذكر في رواية لفظ يعتبر سببا في اللفظ الآخر المذكور في الرواية الأخرى، وظل المعنى العام للحديث واحداً. ومن ذلك ما يلي:

- (أعيرته بأمه(٣٠)= أفنلت من أمه(٦٠٥٠)) فالنيل من الأم كان مسبَّبا عن التعيير.
- (وألا نستنجي باليمين = ولا يستطيب بيمينه)
- (إذا كان الماء قلتين لا ينجس = إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث)
- (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم = في الماء الراكد)

٤- التوسع بذكر السبب بعد المسبب:

وهذا النوع يعتبر عكس النوع السابق، ومن أمثلته:

- (جاءت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم) = (سألت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم). ونلاحظ أن المجيء كان مسببا عن السؤال، فقد جاءت هذه الصحابية لتسأل النبي عليه السلام. ومن أمثلة التوسع بذكر السبب بعد المسبب قوله صلى الله عليه وسلم:
- (فكان لا يستتره من البول) و(كان لا يستتر من بوله)
- (وبشِّروا (٦٩) = وسكِّنوا(٦١٢٥))

الإمكانات اللغوية في المستوى الأسلوبي:

نقصد به أن يرد الحديث النبوي الواحد بروايتين فأكثر، ويكون التعدد بين هذه الروايات شاملا أسلوب الحديث كله مع بقاء الفكرة الأساسية واحدة، أي يبقى موضوع الحديث في رواياته المتعددة واحدا، ويبقى معناه العام دون تغيير.

والذي جعلنا ننسب هذه الإمكانية، أو هذا التوسع اللغوي إلى الأسلوب هو أن نص الحديث يختلف في رواياته اختلافا لا نستطيع حصره في المجال الصوتي، ولا في المجال الصرفي ولا في المجال النحوي، ولا في المجال المعجمي؛ ولكن ذلك التعدد والتوسع أمر ينتمي إلى طريقة صياغة الحديث الشريف، وأسلوبه الذي سلكه في التعبير عن المعنى المقصود.

وهذا النوع من التعدد، أو التوسع في الاستعمال النبوي قد يسمى توسعا (بلاغيا) أو (نصيا) أو (أسلوبيا)، وقد فضلنا تسميته أسلوبيا؛ لأن تسميته نصيا ربما يشدنا إلى النص النبوي كله، أي يجذبنا إلى مجموع الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولسنا نريد هذا الفهم. كما أن تسميته بلاغيا ليس دقيقا في تحديد ما نريد؛ لأن كثيرا مما ينسب إلى (البلاغة) قد رصدناه في التوسع النحوي، كالتعدد بين الخبر والإنشاء، والتعدد بين التوكيد والإطلاق ورصدناه كذلك في التوسع المعجمي.

لكل ما سبق آثرنا التسمية (أسلوبا) لنوضح بها التوسع، وتعدد الإمكانات اللغوية في طريقة التعبير عن المعنى المراد من حديث نبوي يعينه ورد إلينا مرويا بطريقين فأكثر، أو بأسلوبين فأكثر. ونظراً لكثرة هذا النوع من التعدد والتوسع في الأحاديث الشريفة نكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة أو النماذج، وذلك فيما يلي:

١- حديث تعاهد القرآن الكريم والمحافظة على عدم نسيانه ورد إلينا مرويا بعدة أساليب، منها:

- (تعاهدوا هذا القرآن ؛ فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عُقُلها).
- (إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت)
- (استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم بعُقُلها)

٢- حديث العلاقة بين المؤمنين، وكونها علاقة عضوية مثل الجسد الواحد ورد إلينا مرويا بعدة أساليب منها:

- (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى)
- (المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله)
- (إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس).

٣- حديث عرض الجنة والنار على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد إلينا بعدة أساليب منها:

- (عرضت عليّ الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط فلم أر كالخير والشر)
- (لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار ممتلئتين في قبلة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر)
- (ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط؛ إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط)
- (قد أريت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار ممتلئتين في قبل هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر، فلم أر كاليوم في الخير والشر).

٤- حديث تشبه المؤمن بالزرع، أو الخامة، أو الخامة من الزرع أو السنبلة، وقد ورد هذا الحديث بعدة أساليب.

الخاتمة وثمرة البحث:

طوّفنا قليلا مع حديث رسول الله صلى الله عيه وسلم، وكان التطواف مع بعض الروايات المتعددة بحثا عن الإمكانات اللغوية التي تحظي بها هذه الروايات، ومجالات التوسع اللغوي بين ما هو صوتي وصرفي ونحوي ومعجمي وأسلوبي. ويبقى السؤال الأهم: (ما ثمرة هذا البحث ؟)، و(لماذا جاءت بعض الأحاديث النبوية بروايات متعددة؟) اتضحت الإجابة في الكشف عن الثراء اللغوي للحديث النبوي الشريف، والإبانة عن إمكاناته، وألوان التوسع الاستعمالي فيه مع الرقي البلاغي إلى أعلى درجة في الفصاحة العربية، "لقد اعتبرت فصاحته من المسلمات العقيدية التي لا يتنازع فيها اثنان، وكلامه عليه الصلاة والسلام في المرتبة الثانية بعد كلام الله عز وجل المعجز فكرا وأسلوبا". [1]

وإذا "كان الفقهاء قد أفادوا منه – أي من الحديث النبوي – في بيان الأحكام، كما أفاد المفسرون منه بيان معاني القرآن" الكريم فقد وجب على اللغويين أن يفيدوا منه كذلك في بيان الاستعمال العربي الفصيح.

[1]- دراسات لغوية : د. عبد الصبور شاهين : ٦٧.

وهنا تأتي الثمرة الثانية وهي الكشف عن الحاجة الشديدة إلى القيام بدراسات لغوية كثيرة، ومتنوعة، ومعمّقة للحديث النبوي الشريف: دراسات تتعلق بجميع الجوانب والمستويات اللغوية، وتقدم تحليلات وافية للظواهر اللغوية الموجودة في كل جانب، أو مستوى مما سبق.

أما ثالثة الثمرات فهي تقديم تفسير، أو تعليل لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم إذ غالبا ما يكون هذا التفسير والبيان أو التعليل مقدما من الصحابة الذين يروون الحديث ولعل الحديث المروي عن طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بعدة طرق يوضح هذه الفكرة، ولنتأمل النصوص التالية:

- (أتى رسول الله صلى الله علي وسلم بصبي...) (٢٢٢)
- (أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصبي يحنكه....) (٥٤٦٨)
- (إن النبي صلى الله عليه وسلم وضع صبيا في حجره يحنكه ...) (٦٠٠٢)
- (كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى بالصبيان فيدعو لهم ...) (٦٣٥٥)

نفهم –والله ورسوله أعلم– أن الغرض من إحضار الصبيان للرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن بدون هدف، أو لمجرد الإتيان بهم إليه، ولكن لكي يدعو لهم، ولكي يباركهم بأن يحنكهم بيده الكريمة، ولكي يضعهم في حجره الشريف فيحظون بالأمن والأمان.

ومع ذلك فلن نستطيع إغفال الجانب التشريعي في آخر هذا الحديث الشريف؛ لأنه يضع حكما فقهيا من باب الطهارة، وهو الاكتفاء بمسح الثوب بالماء بدلا من غسله مادام الصبي لم يتخط العامين.

وتأتي الثمرة الرابعة، وتتلخص في الكشف عن الدلالات والمعاني المرادة من الحديث النبوي؛ فقد يرد الحديث الشريف برواية تحتمل التعبير عن عدة دلالات، وكلها مقبولة، فتأتي رواية أخرى لنفس الحديث وتذكر الدلالة المطلوبة بالضبط أو تحيل إليها فيستقر المعنى المراد في ذهن الجماعة المسلمة.. ومن أمثلة ذلك ما يلي:-

١- دلالة فعل الأمر على الإخبار، أي إفادته معنى خبريا يحتمل الحكم عليه، أو أنه يبلغنا (معلومة) أو (فائدة)، ومن ذلك قوله علي السلام: (من ترك مالا

فليرثه عصبته من كانوا) (٣٧٣) باستعمال المضارع المقترن بلام الأمر. وقد يفهم من هذا الفعل الطلب، أو الأمر، أو الوجوب . ولكن الرواية الأخرى للحديث حددت المعنى المراد، وأن الحديث مذكور في سياق خبري لا سياق إنشائي، وهذه الرواية هي : (من ترك مالا ورثه أهله)(١٢١٢)

ومن ذلك أيضا قوله عليه الصلاة والسلام : (أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم) (١٩٢) ، والمراد من فعل الأمر هنا ليس طلب النظر، وإنما الإخبار بأنه عليه السلام يشبه صاحبكم، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاءت الرواية الثانية: (أنا أشبه ولده به) (٣٧٢).

٢- دلالة فعل الأمر (انظروا) في بعض الأحاديث على التعجب، أو التعجيب وليس على طلب النظر. (٤٤٠)

تلك بعض ثمرات النظر في لغويات الحديث النبوي الشريف، وفي جانب خاص فقط، وهو الحديث الوارد إلينا بروايتين فأكثر. وتفتح هذه الخاتمة الباب أمام اقتراح وتوصية إلى علماء اللغة من المسلمين أن تتجه قلوبهم وعقولهم إلى سنة نبيهم الكريم عليه السلام بالدرس والتحليل واستخراج ما فيها من كنوز وجواهر.

والله الموفق والمسدد والهادي سواء السبيل.

مصادر البحث ومراجعه

أولا: المصادر:

١- القرآن الكريم .

٢- فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ط ٣، المكتبة السلفية، القاهرة ١٤٠٧هـ.

ثانيا: المصادر:

١- الأبحاث، مجلة مركز الدراسات العربية بكلية الآداب. الجامعة الأمريكية – بيروت السنة: ٣٠ ، ١٩٨٣م.

٢- أحاديث القصاص، لابن تيمية، تحقيق : د. محمد بن لطفي الصباغ. المكتب الإسلامي بيروت. ١٣٩٢-١٩٧٢.

٣- أدب الإملاء والاستملاء ، للسمعاني طبعة ليدن – ١٩٥٢م.

٤- أسس علم اللغة، ماريو ياي ، ترجمة وتعليق د. أحمد مختار عمر، الناشر عالم الكتب – القاهرة ط ٣، ١٩٨٧م.

٥- التصوير الفني في الحديث النبوي . محمد بن لطفي الصباغ. المكتب الإسلامي بيروت. ط ١ ١٤٠٩-١٩٨٨.

٦- التفكير اللغوي بين القديم والحديث : د. كمال بشر ، دار الثقافة العربية القاهرة . ١٩٨٨م.

٧- الحصانة الذاتية للغة العربية... مصادرها ومظاهرها . د. محمد أحمد حماد، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي العاشر لجمعية لسان العرب بجامعة الدول العربية بالقاهرة، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٢م.

٨- دراسات في علم اللغة . د. كمال بشر. دار المعارف – القاهرة ١٩٦٩م.

٩- دراسات في فقه العربية: د. محمد أحمد حماد . الناشر: دار الثقافة العربية القاهرة: طبعة ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

١٠- دراسات لغوية: د. عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة – بيروت طبعة٢ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١١- العربية الفصحى الحديثة: ياروسلاف ستتكيفتش، ترجمة وتعليق د. محمد حسن عبد العزيز. دار نمر للطباعة . القاهرة ١٩٨٢م

١٢- فقه اللغات السامية: كارل بروكلمان، ترجمة د. رمضان عبد التواب، طبعة جامعة الرياض-١٣٩٧هـ.

١٣- فقه اللغة المقارن. د. إبراهيم السامرائي، دار العلم للملايين، بيروت ط ٢ ، ١٩٧٨م.

١٤- اللغة العربية عبر القرون. د. محمود فهمي حجازي . طبعة دار الكاتب العربي بالقـــاهرة ١٩٦٨م.
١٥- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان دار الثقافة – الدار البيـــضاء –المغـــرب ط ٢ ، ١٩٩٠م.
١٦- مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان، الناشر مكتبة الانجلو المصرية – القـــاهرة طبعـــة ١٩٩٠م.
منهج النقد في علوم الحديث. د. نور الدين عتر. دار الفكر . دمشق ط ٣، ١٤٠١-١٩٨١.